IJHER International Journal of Humanities and Educational Research
ISSN: 2757-5403
Volume 4, Issue 4, August 2022

Received: 17/06/2022 **Accepted:** 12/07/2022 **Published:** 01/08/2022

MORAL EDUCATION IN ISLAM (ALGHAZALI AS AN EXAMPIE)

Amna Abdulsalam ALZAEDI[1]

Dr, University of margab, libya

Abstract

Alghazali has given greater importance and paid attention, towards moral education, considering that islam is a call that is fundamentally built on the noble morals. and that morals are basically the core of the educational process. Thus, alghazali has presented to us a curriculum for the education of morals, how can man identify the defects of on eself, how can one change his morals in order to achieve the satisfaction of allah. as he paid attention towards educating the humane societies and methods that may help them to develop, ending up with a balanced society.

For alghazali, morals are tied to religion in a strong and concrete manner, to him religion is the base of morals. alghazali has found that religion is the favourite method in modifying the sources and motives, to be grown up in a manner that fits with the duties of worships and religious.

Key words: Goal From The Moral, Good Moral And Bad Moral, Moral Doing, Moral Education.

http: //dx.doi.org/10.47832/2757-5403.15.38

[1] amna.1984.2005@gmail.com, https://orcid.org/0000-0002-4016-171X

التربية الأخلاقية في الفكر الإسلامي (الغزالي إنموذجاً)

امنة عبدالسلام الزائدي
د. جامعة المرقب الخمس، ليبيا

الملخص

أعطى الغزالي للتربية الأخلاقية قدراً كبيراً من الاهتمام فاعتبر أن الإسلام دعوة تقوم على مكارم الأخلاق بالأساس، وأن الأخلاق بالأساس هي جوهر العملية التربوية، لهذا قدم لنا الغزالي منهجاً لتربية الخلق وكيف للإنسان أن يعرف عيوب نفسه وكيف يمكنه تغيير أخلاقه للحصول على رضى الله، كما اهتم أيضاً بتربية المجتمعات الانسانية وما يساعدها على التطور والوصول بها إلى مجتمع نقي متوازن.

فالأخلاق ترتبط عند الغزالي بالدين ارتباطاً قوياً ومتيناً، فالدين عنده أساس الأخلاق وهي غايته وهدفه، وبما أن أخلاق الإنسان تترجم بسلوكه وأفعاله المختلفة التي تصدر بفعل من بواعث ومواقع نفسية داخلية كامنة في باطن النفس الإنسانية، ومن خلال تحليله لهذه النفس بهدف الكشف عن دوافع الخير وبواعث الشر فيها؛ وجد الغزالي أن الدين هو الوسيلة الفضلى في تعديل هذه البواعث والدوافع وتنميتها بشكل تتسق مع فروض العبادات والشعائر الدينية.

الكلمات المفتاحية: لخلق الحسن والخلق السيء، الفعل الأخلاقي، التربية الأخلاقية، الغاية من الأخلاق.

المقدمة

يعتبر علم الأخلاق ركناً أساسياً من أركان مباحث الفلسفة منذ نشأة الفكر الفلسفي، وقد خصص له مكانة مميزة ومهمة في جميع المذاهب الفلسفية على اعتبار أن الفلسفة تبحث في القيم الثلاث الأساسية:" الحق.. الخير.. الجمال.

ويعد أبو حامد الغزالي من كبار المفكرين المسلمين عامة ومن كبار المفكرين بمجال علم الأخلاق والتربية خاصة، الذين بينوا الطرق العملية لتربية الأبناء وإصلاح الأخلاق الذميمة وتخليص الإنسان منها، فكان بذلك مفكراً ومربياً ومصلحاً اجتماعياً في آن معاً.

وعلى الرغم من أن علم الأخلاق لم يكن بالعلم المحدث أيام (الغزالي) ففي الحديث الشريف "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" كما أن كثيرين أولئك الذين تناولوا مسائل الفلسفة الأخلاقية قبله، سواءٌ أكان في الفكر اليوناني، أم كان في الفكر العربي الإسلامي، فأن الغزالي اهتم بالأخلاق اهتماماً كبيراً، فاحتلت جزءاً كبيراً من مؤلفاته.

ومن أهم الكتب التي تناول فيها المسألة الأخلاقية هي إحياء علوم الدين، وقد أسسه على أربعة أرباع:

ربع العبادات وربع العادات وربع المهلكات وربع المنجيات.

وكذلك تناول الأخلاق في كتبه الأخرى: كميزان العمل ومنهاج العارفين والأربعين في أصول الدين والأدب في الدين ونصيحة الملوك والقواعد العشرة والمنقذ من الضلال ...وغيرها.

وقد أطلق الغزالي على هذا العلم أسماء متعددة مثل: علم طريق الآخرة، وعلم صفات الخلق، وأسرار معاملات الدين، وأخلاق الأبرار، ويقصد به تكييف النفس وردها إلى ما رسمته الشريعة وخطة رجال المكاشفة من علماء الإسلام ومن سبقهم من الأنبياء والصديقين[2].

أهمية الدراسة:

- نحن في زمن أصبح من الضروري أن يكون لكل أمة فلسفة تربوية تراعي خصوصياته ماضياً وحاضراً ومستقبلاً تجعله قادراً على مجابهة تحديات العصر.
- أن التربية ماهي إلا عملية إرشادية وتوجيه فهي التي تميز الإنسان عن الحيوان بإعتبار أن التربية لدى الإنسان قصدية، تسعى للوصول به إلى الكمال.

[2]- زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، دار الجيل، بيروت،ط1، 1988م، ص113.

- أن الاتجاهات الحديثة في فلسفة التربية تميل إلى الإستفادة من التراث القديم ودراسته بإعتبار أن فهم الحاضر يتطلب الرجوع إلى الماضي، وخاصة عند الأمام الغزالي التي كانت التربية عنده رسالة قبل أن تكون وظيفة، وهي من أشرف الصناعات التي يستطيع الإنسان أن يحترفها، وإن غرض التربية الأساسي عنده هو الفضيلة والتقرب إلى الله.

ومن هنا كان اهتمامنا بالبحث في التربية الأخلاقية انطلاقاً لما قدمه من نظره متكاملة حول طبيعة فلسفة التربية عنده.

مشكلة الدراسة:

لذلك حاولت في هذه الدراسة الإجابة عن العديد من التساؤلات التي يثيرها موضوع البحث، وهي كالآتي: مامفهوم الخلق عندالغزالي؟ وهل الأخلاق في نظره فطرية ام مكتسبة؟ وهل في الامكان تغييرها؟ هل في مقدور المرء لدى الغزالي أن يصل إلى أعلى درجات الأخلاق؟ وهل تأثر الغزالي بآراء السابقين عليه اتناء عرضه للموضوعات التي تناولها؟ وهل تميز عنهم؟

منهج الدراسة:

أما بالنسبة للمنهج الذي اتبعته في هذا البحث فهو المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على تحليل الآراء والأفكار المطروحة وتفصيل مسائلها, بالإضافة إلى المنهج التاريخي من خلال عرض بعض آراء السابقين ومدى التأثر والتأثير.

تقسيم البحث:

بناءاً على ماسبق قمت بتقسيم هذه الدراسة إلى مبحثين بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة:

- المبحث الأول: عرضت فيه مفهوم الأخلاق وإمكانية تغييرها وشروط الفعل الأخلاقي.
- المبحث الثاني: وقد تناولت فيه التربية الأخلاقية وأهم الفضائل عنده والغاية من الأخلاق.

والحقيقة أن تتبع ما أثاره الإمام (الغزالي) من مسائل تخص الفلسفة الأخلاقية يقودنا إلى أنه قد عالج هذه المسائل انطلاقاً من وجهتي نظر، فقد نظر إلى الأخلاق نظرة دينية وقادها في منحى صوفي، في الوقت الذي كان يعالجها ويتعامل معها بأسلوب الفيلسوف ولغته، إلا أننا لا نميل إلى الفصل بين آرائه على هذا النحو، ذلك أن ثمة تداخلاً وتشابكاً بينهما، فالنزوع الفلسفي لم يفارق الغزالي في أي من كتبه، كما أن تأثير التعاليم والمبادئ الدينية قد ظل واضحاً أيضاً، بل كان الطابع المميز له.

فاعتمد الغزالي القرآن الكريم معياراً ليحتكم إليه الفرد في رسم صفات الخلق الحسن وصفات الخلق السيئ إذ فرق الخالق جلّ وعلا في كتابه العزيز بين صفات المؤمنين وصفات المنافقين، وهي في جملتها ثمرة حسن الخلق وسوئه التي وضحها الغزالي بإيراده جملة من الآيات القرآنية بقوله " فمن أشكل عليه حاله فلينظر نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليشغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده"[3].

وعلم الأخلاق عند الغزالي علم معاملة لامكاشفة أي أنه يبحث في الأعمال وفيما ينبغي على المرء أن يفعله ليكون سلوكه موافقاً لروح الشريعة وقد قدم لكتاب الإحياء بقوله: "إن طريق الآخرة ومادرج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقها وحكمة وعلماً وضياءً ونوراً وهداية ورشداً فقد أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسياً ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً وخطباً مدلهماً رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب إحياء علوم الدين وكشفنا عن مناهج الأئمة المتقدمين وإيضاحاً لمناحي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين"[4].

[3]- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص74، زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، ص158-159.
[4]- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص3.

المبحث الأول:

فما مفهوم الخلق عند الإمام الغزالي؟

يفرق الغزالي بين الخلق، والخُلق والمراد بالخلق هو الصورة الظاهرة المركب منها الإنسان، والخلق هو الصورة الباطنة للإنسان، ولكل واحد منهما صورة إما قبيحة وإما جميلة[5].

يعرف الغزالي الخلق في الميزان بأنه "إصلاح القوى الثلاث قوة التفكر وقوة الشهوة وقوة الغضب"[6]. ويعرفه في مكان آخر من الميزان بأنه إزالة جميع العادات التي عرف الشرع تفاصيلها وجعلها بحيث يبغضها فنتجنبها كما تتجنب المستقذرات. وتعود العادات الحسنة والاشتياق إليها[7]. وأيضاً يعرف الخلق الحسن بفعل مايكره المرء. ويستشهد بالحديث: "(حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات) وبالآية: (عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم).[8]

ولعل أكثر هذه التعريفات دقة وضبطاً هو التعريف الذي قدمه لنا في "الإحياء" حيث يقول إن الأخلاق هي: "هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ومن غير حاجة إلى فكر أو روية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت الهيئة خلقاً حسناً وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً"[9].

ويشرح الغزالي المقصود بأن الأخلاق هيئة راسخة، أي أنها ثابتة في النفس، بمعنى أن لايأتي الفعل الخلقي استثناءً أو عارضاً، بل يكون دائماً وثابتاً، والمقصود بغير روية وفكر، هو أن يكون الفعل الأخلاقي سهلاً ميسوراً لايحتاج إلى إعمال الفكر(فطري وطبيعي)[10]. ولذلك يقول الغزالي: "من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لايقال خلقه السخاء والحلم"[11].

والحق أن الإمام الغزالي لم يبتعد بهذا التعريف عن التعريفات المعاصرة للأخلاق على تعددها وتباينها، لذلك ركز مفهومه للأخلاق على الفكرة الجوهرية التي يقوم عليها الفعل الأخلاقي ويصدر عنها، وهي الرسوخ في النفس والتّلقائية، إذ الفعل الأخلاقي العرضي ليس موجباً لوصف فاعله بأنه أخلاقي، أو غير أخلاقي، كما أن إطالة التفكير وتكلف الجهد لدفع الذات إلى الفعل الأخلاقي ليس كافياً لاعتبار صاحب الفعل متخلّقاً به.

شروط الفعل الأخلاقي:

انطلاقاً من تعريفه للأخلاق يبين لنا الإمام الغزالي شروط الفعل الأخلاقي فيرى أنها أربعة: الأول: فعل الجميل والقبيح. والثاني: القدرة عليهما.والثالث: المعرفة بهما. والرابع: هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين[12].

ومن ذلك يتبين لنا أن هذه الشروط الأربعة للفعل الأخلاقي متلازمة متكاملة، أولها وجود الفعلين: الجميل والقبيح، وثانيها: قدرة المرء على فعلهما معاً، وثالثها: معرفته بالفعل الذي يقوم به وقيمته التي يحققها، وأخيراً الفعل الأخلاقي بحد ذاته وهو أهمها، هذا الفعل الذي ينبغي أن يكون صدوره من غير روية وتفكير، أي بصورة تلقائية، ولذلك كما يقول الإمام الغزالي: "وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال وإما لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث وإما لرياء، وليس هو عبارة عن القوة لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحدة، وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء، وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد، بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل، فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة"[13].

---

[5]- علي عبدالفتاح المغربي، دراسات عقلية وروحية في الفلسفة الإسلامية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1995م، ص245.
[6]- الغزالي، ميزان العمل، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى، 1964م.ص56.
[7]- المصدر نفسه، ص47.
[8]- سورة البقرة،الآية: 216.
[9]- المصدر نفسه، ص64.
[10]- علي عبدالفتاح المغربي، دراسات عقلية وروحية في الفلسفة الإسلامية، ص246.
[11]- الغزالي، إحياء علوم الدين،ج3، ص53.
[12]- المصدر نفسه، ج3، ص52.
[13]- المصدر نفسه،ج3، ص52.

إمكانية تغيير الخلق:

إذا كانت الأخلاق هيئة راسخة في النفس، فهل يعني ذلك أن الأخلاق لايمكن تبديلها؟ بمعنى آخر هل الأخلاق مكتسبة؟ يجيب الغزالي بأن الأخلاق تقبل التغيير، ويدعم الغزالي رأيه بإشارته إلى أن كل كائن حي يمكن أن يتغير خلقه حتى البهائم يمكن تبديل خلقها من الاستيحاش إلى الاستئناس. وإلى أنه لو كانت الأخلاق لاتقبل التغيير لبطلت المواعظ والوصايا والتأديبات، ولما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "حسنوا أخلاقكم"[14].

كما أن الغزالي لم ير في تغيير الأخلاق إعداماً وقضاءً مبرماً على بذرة الشر والسوء والفساد في نفس الإنسان كما ظن البعض، وإنما تغيير الأخلاق هو قهر الطبائع السيئة الفاسدة وإسلاسها وترويضها وحسن قيادها، يقول الغزالي: "وظنت طائفة أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها، وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة. وهي ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه مايهلكه. ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لامحالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال. وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية، بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط"[15].

أما كيف يتم هذا التغيير فأن الغزالي يحدده على مراحل:

1. معرفة الأخلاق المذمومة.
2. طريق تغييرها أو وسائل العلاج العامة.
3. طرق التعديل أو العلاج الخاصة بكل نوع من الأخلاق المذمومة.
4. معرفة الإنسان عيوب نفسه.
5. تقدير حالة الإنسان الذي سيغير خلقه.
6. وسيلة العلاج الخاصة والعامة لكل إنسان.

ويرى الغزالي أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوى النفس المفكرة والغضبية والشهوية، وهذا الاعتدال يأتي على وجهين:

أحدهما: يحصل بوجود إلهي بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق.

والوجه الثاني: هو اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة.

وهكذا يرى الغزالي أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح، فالفضيلة بذلك تكون بالطبع والاعتياد والتعلم، ومن توافرت فيه هذه الخصائص الثلاث كان في غاية الفضيلة.

كما أن قبول الناس لتغيير الأخلاق ليس بدرجة واحدة بل هم في ذلك مختلفون على أربع مراتب، يحددها الغزالي في قوله[16]:

الأولى: هو الإنسان الغفل الذي لايعرف الحق من الباطل والجميل من القبيح.

والثانية: أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح، بل زين له شر عمله يتعاطاه انقياداً لشهواته وإعراضاً عن صواب رأيه.

والثالثة: أن يعتقد الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل ثم تربى عليها، فهذا يكاد يمتنع معالجته ولن يرجى صلاحه إلا على الندور إذ تضاعفت عليه أسباب الضلال.

---

[14]- المصدر نفسه، ج3، ص54.
[15]- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص55.
[16]- انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص55، الغزالي، ميزان العمل، ص63-65.

والرابعة: أن يكون مع وقوع نشوئه على الاعتقاد الفاسد وتربيته على العمل به يرى فضله في كثر الشر واستهلاك النفوس، ويتباهى به، ويظن أن ذلك يرفع من قدره _ وهذا أصعب المراتب _ وصاحب المرتبة الأولى جاهل والثانية جاهل وضال والثالثة جاهل وضال وفاسق والرابعة جاهل وضال وفاسق وشرير.

وبالتالي يمكن القول بأن الغزالي يقر بدور للطبع ودور للاكتساب، لكن مافي الطبع يحتاج إلى المرانة والاعتياد والتعلم، وهذا يعني أن ما في الطبع ليس داءً عضالاً لايمكن اقتلاعه، بل يمكن تعديله وتوجيهه بالاعتياد والتعلم والمخالطة.

الطريق إلى تهذيب الأخلاق:

وإذا كانت الأخلاق قابلة للتغيير، _ كما ذهب الغزالي _ فما الطريق، وما وسيلة الانتقال من الرذيلة إلى الفضيلة؟

يرى الغزالي أن ذلك يتحقق عن طريق تعويد النفس على الفضيلة، فعلاج الجهل بالتعلم والبخل بالتسخي تكلفاً، والكبر بالتواضع تكلفاً، والشره بالكف عن المشتهي تكلفاً.

وهذا العلاج عند الغزالي ليس بالأمر السهل في بدايته، بل يحتاج إلى الصبر والمجاهدة، فكما يصبر المريض على مر الدواء، فلابد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداوة مرض القلوب. فعلى المريض أن يتكلف ذلك الخلق الحسن الجديد ويصبر عليه، ثم يداوم على تكراره، حتى يصبح عادة سهلة ميسورة وراسخة في النفس[17].

كما يشير الغزالي إلى أن هذا العلاج ليس واحداً وثابتاً لكل الأمرض والمرضى، بل هو متغير حسب حالة المرض وحالة المريض، وإذا كان ذلك مايراعيه الطبيب المعالج للأبدان، فكذلك يجب أن يراعيه الشيخ الذي يعالج نفوس المريدين، يقول الغزالي: "فينبغي أن لايهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص مالم يعرف أخلاقهم، فإذا عرف ماهو الغالب على المريد من الخلق السيئ وعرف مقداره ولاحظ حاله وسنه ومايحتمله من المعالجة عين له الطريق"[18].

والحق أن هذا، كما يقول الإمام الغزالي طريق جملي (كلي) في تهذيب الأخلاق، والكلام في تفصيله يطول، والغرض أن ننظر إلى تزكية نفوسنا في أخلاقنا، فإن كانت مهذبة وجب علينا حفظها، وإن كانت مائلة وجب تقويمها بالرد إلى حد الاعتدال، والمقصود من جلب الاعتدال سلب الطرفين، إذ الغرض تطهير النفس عن الصفات التي تلحقها بعوارض البدن، حتى لا تلتفت إليها بعد المفارقة، عاشقة ومتأسفة على قوتها.

معرفة عيوب الذات:

ومما يلحق بتهذيب الأخلاق وإصلاحها، ويتصل بهما اتصالاً وثيقاً، معرفة عيوب الذات، كما يقف المرء على وجوه معايبه ويحسن الإفادة منها في تغيير أخلاقه وتهذيبها، يرى الإمام الغزالي أن المفكر نافذ البصيرة، الذي يحسن استخدام عقله وتوظيفه لم تخف عليه عيوبه، وبحسن تعقله وتفكيره يعالج ما يعرف من عيوبه لأن علاجها يقود إلى كمال النفس ونزاهتها، ولكن المشكلة تكمن في أن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم؛ ولذلك تجد أحدهم يرى القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه، ولما كانت الحالة كذلك لم يجد الغزالي بدًا من وضع مقياس يستند إليه المرء الذي يتوخى معرفة عيوب نفسه، وينقسم هذا المقياس إلى طرق أربعة[19]:

الأول: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، مطلع على خفايا الآفات، ويحكمه في نفسه، ويتبع إشارته في مجاهدته، وهذا شأن المريد مع شيخه، والتلميذ مع أستاذه، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه، ولكن الإمام الغزالي يرى أن مثل هذا عزَّ وجوده وندر في زمانه، ولذلك قدم طريقاً آخر.

الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً متديناً فينصبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أقواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة[20] ينبهه عليه فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين، ويستشهد لذلك ببعض الأقوال منها قول عمر بن الخطاب (38 ق.هـ/ 23هـ، 586م/644م) "رحم الله امرأ أهدى إليَّ عيوبي". ولما ندر أيضاً وجود الصديق الصادق في وده وحبه، ولما كان الصديق ينظر بعين الرضا فلا يرى إلا محاسن، لم يكن هناك بد من تقديم طريق ثالث

الثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدي المساوي، ولعل انتفاع الإنسان بعدو

---

[17]- عبدالفتاح المغربي، دراسات عقلية وروحية في الفلسفة الإسلامية، ص251.

[18]- الغزالي، ميزان العمل، ص72-75.

[19]- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص64-65.

[20]- في حين أن هناك موقفاً مضادًا للغزالي في هذه المسألة يمثله أبوحيان التوحيدي وكفره بالصديق وانه لايوجد صديق، حيث يقول: "وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنه لا صديق، ولا من يتشبه بالصديق" انظر: أبوحيان التوحيدي، الصداقة والصديق، ص5.

مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عيوبه. ويجب على الإنسان أن ينتبه إلى أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد، ولذلك ينبغي عليه أن يكون بصيراً حاذقاً، يعرف كيف ينتفع بقول أعدائه، فإن مساويه لابد من أن تنتشر على ألسنتهم.

لرابع: أن يخالط الناس، فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه، ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى، فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه، فليتفقد نفسه وليطهرها من كل ما يذمه من غيره، وناهيك بهذا تأديباً. فلو ترك الناس كلهم ما يكرهون من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب ويستشهد لذلك بجواب (عيسى) عليه السلام عندما سئل عمن أدبه فقال: "ما أدبني أحد، رأيت جهل الجاهل شيناً فاجتنبته".

وبالتالي لابد لنا هنا من الحديث عن الخلق الحسن الذي يعده الغزالي الغاية المرجوة من تهذيب الأخلاق.

الخلق الحسن:

لم يقنع الغزالي بالتعريفات الكثيرة للخلق الحسن التي درج العلماء والفقهاء والأدباء على استخدامها، ذلك أنها لم ترقى إلى الدلالة المفهومية للخلق الحسن، أي لم تعرض لحقيقته، وإنما كانت تعرض لثمرة الخلق الحسن، كأن يقال الخلق الحسن هو "بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى...وهو إرضاء الخلق في السراء والضراء..."[21] وغير ذلك من التعريفات الكثيرة التي لا تعدو كما يرى الغزالي كونها عرضاً لثمرات الخلق الحسن. ولذلك لم يجد الغزالي بداً من تعريف الخلق عامة بادئ ذي بدء، ثم يبين ماهية الخلق الحسن فيقول:

"فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة، وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك في الباطن أربعة أركان لابد من الحسن في جميعها حتى يتم الخلق، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث"[22].

فصلاح هذه القوى الثلاث وتهذيبها أو العدل في استخدامها وتوظيفها هو حسن الخلق، والحق أن ثمة توافقاً وانسجاماً بين ما عرضه الإمام الغزالي في كتابيه الإحياء و الميزان حول هذه القوى الثلاث[23] وتعريف الخلق الحسن، وإن تعددت التسميات بين مكان وآخر.

أما القوة الأولى، وهي قوة العلم أو التفكير، فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة، وثمرتها أن يتيسر للمرء الفرق بين الحق والباطل في الاعتقاد، وبين الصدق والكذب في المقال، وبين الجميل والقبيح في الأفعال، ولا يلتبس عليه شيء من ذلك[24].

والقوة الثانية، قوة الغضب أو الحمية الغضبية "وحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة"[25] وبقهرها وإصلاحها يحصل الحلم، وهو كظم الغيظ، وكف النفس عن التشفي.

وأما القوة الثالثة، وهي الشهوة "فحسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة العقل والشرع"[26] وبإصلاحها تحصل العفة حتى تنزجر النفس عن الفواحش، وتنقاد للمواساة والإيثار المحمود بقدر الطاقة. أما قوة العدل فهو "ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع"[27].

وبالتالي فأن معيار الخلق الحسن عند الغزالي هو الصفات التي خص بها الله سبحانه وتعالى المؤمنين، ومعيار الخلق السيئ هو صفات المنافقين كما وردت في القرآن الكريم.

---

[21] - الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص52.
[22] - المصدر نفسه، ج3، ص52.
[23] - كان لنظرية أفلاطون في الفضائل الأساسية: الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة، ولنظرية الأوساط الأرسطية في الفضيلة أثر كبير لدى الغزالي ولدى الكثير من مفكري المسلمين وبخاصة المشتغلين بالأخلاق. انظر: محمود حمدي زقزوق، مقدمة في علم الأخلاق، دار القلم، الكويت، ط3، 1983م، ص148.
[24] - لغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص52-53.
[25] - المصدر نفسه، ج3، ص53.
[26] - المصدر نفسه، ج3، ص53.
[27] - المصدر نفسه، ج3، ص53.

المبحث الثاني: التربية الأخلاقية:

إن إيمان الغزالي بإمكان تغيير الأخلاق وإصلاحها يقودنا إلى فكرة جديدة هي التربية أو التنشئة الأخلاقية، وقد رسم لنا الغزالي منهجاً تربوياً واضحاً لتربية الإنسان أخلاقياً، ولم يقتصر في رسم هذا المنهج على المراحل المبكرة من حياة الإنسان وحدها. وإنما تعداها إلى كل مراحل حياته، وما سبق وتحدثنا عنه من تغيير الأخلاق وإصلاحها وتهذيبها يمكن أن نعدّه تربية أخلاقية للإنسان اليافع والراشد، الذي بإمكانه أن يسلك أكثر من سبيل لمعرفة العيوب وتقويمها، وليس هذا فحسب بل إنه وضع لكل فضيلة أخلاقية طرقها الخاصة التي تساعد على تنميتها وتعزيزها، كما بين كيفية التخلص من الرذائل كل على حدة.

فيرى الإمام (الغزالي) أن النفس البشرية صفحة نقية بيضاء تقبل كل نقش وصورة تعرض عليها. وها هو ذا يصف القلب الطاهر للطفل بأنه "جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال إليه – أي أن الإنسان يخلق قابلاً للخير والشر- فإن عوّد الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وإن عوّد الشر وأُهمل شقي وهلك"[28] الأمر الذي يعطي للتربية أهم دور في تكوين الإنسان وبناء شخصيته وتحديد معالمها وأبعادها، وكثيراً ما أكد الغزالي على ضرورة العناية بالأطفال وحسن توجيههم لما أدركه من أهمية التربية ودورها الحاسم في بناء شخصية الطفل.

والحق أن هذه الفكرة ذاتها – فكرة نقاء النفس- هي الفكرة المحورية التي بنت عليها المدرسة التجريبية الإنكليزية بنيانها الفلسفي، وبهذا المعنى ذاته يرى(جون لوك –1632-1704): "إن النفس الإنسانية في الأصل كلوح مصقول لم ينقش فيه شيء، وأن التجربة هي التي تنقش فيها المعاني والمبادئ جميعاً"[29] ، وفي هذا الرأي لجون لوك يبدو التشابه بينهما واضحاً جلياً.

فالأخلاق الفاضلة عند الغزالي لا تولد مع الإنسان، وإنما يكتسبها عن طريق التربية والتعليم من البيئة التي يعيش فيها. والتربية الأخلاقية السليمة في نظر الغزالي تبدأ بتعويد الطفل على فضائل الأخلاق وممارستها مع الحرص على تجنيبه مخالطة قرناء السوء حتى لا يكتسب منهم الرذائل، وفي سن النضج العقلي تشرح له الفضائل شرحاً علمياً يبين سبب عدها فضائل وكذلك الرذائل وسبب عدها رذائل حتى يصبح سلوكه مبنياً على علم ومعرفة واعية.

ولكن الإمام الغزالي يرى من جهة ثانية أن الإنسان مفطور على الميل إلى القيم الأخلاقية الإيجابية، وإلى الخير عموماً، ميلاً غريزياً، ويؤكد ذلك قوله: "فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع. يضاهي الميل إلى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة، فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع[30] القلب لأنه أمر رباني وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب"[31].

وأحياناً يورد مايشير إلى أن الميل إلى السوء طبيعي عند الإنسان فيلح على أن النفس أمارة بالسوء وعلى إن الخطيئة أساسية عند كل إنسان منذ عهد آدم[32].ونعتقد أن الغزالي يقصد من الغريزة والفطرة مجرد الاستعداد، أو الحالة التي يخرج فيها الإنسان من يد الخالق بكل طبائع الإنسان ومزاجه المركب من الأخلاق المختلفة ويكون الأمر سواء بالنسبة إلى الخير أو الشر ويكون القلب بأصل الفطرة صالحاً لقبول أثار الملك وأثار الشيطان ولا يترجح أحدهما على الآخر إلا باتباع الهوى والانكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها[33].

ومما تقدم نرى للغزالي رأيين مختلفين في وراثة الأخلاق. فهو حين يقرر أن قلب الطفل جوهرة ساذجة خالية من كل نقش، وقابلة لكل صورة، يحكم بأن الأخلاق لاتورث. وحين يدعو إلى أن ترضع الطفل امرأة غير متدينة يحكم بأنها تورث. فهل يمكن الرفع مابين هذين الأمرين من ظاهر الخلاف؟

---

[28]- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص45.
[29]- عزمي إسلام، جون لوك، ص234.
[30]- الطبع: مجموعة مظاهر السلوك والشعور المكتسبة والموروثة التي تميز فردا عن آخر. مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، ص111. ويعرفه الجرجاني بقوله: "أنه الجبلة التي خلق عليها الإنسان" انظر: الجرجاني، التعريفات، ص34.
[31]- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص57-58.
[32]- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص6.
[33]- المصدر نفسه، ج3، ص27. .

ولكن كيف يربى الخلق؟

يرى الغزالي أن من الناس من ولد حسن الخلق بفطرته، بحيث لايحتاج إلى تعليم، ولا إلى تأديب كعيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، (عليهما السلام)، وكذا سائر الأنبياء. ولا يبعد فيما يرى أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب.

والطريق إلى تربية الخلق فيما يرى الغزالي هو التخلق: أي حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب. فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود، فعليه أن يتكلف فعل الجود: وهو بذل المال، حتى يصير ذلك طبعاً له.

ويمكن تلخيص المنهج الذي وضعه الغزالي لتربية الطفل على النحو التالي[34]:

وقد أورده على صورة واجبات الوالد نحو ولده فبين أنه يجب عليه:

- تأديب ابنه وتهذيبه وتعليمه محاسن الأخلاق وحفظه من قرناء السوء.
- أن لايحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية لئلا يتعود التنعم فيعسر تقويمه بعد ذلك.
- إذا رأى مخائل التمييز وبوادر الحياة فليعلم أن عقله مشرق وأن تنمية هذه الباكورة من عزم الأمور وأحسن ماتنمى به أن تستعان في تأديبه وتهذيبه.
- وليعلم أن أول مايغلب على الطفل شره الطعام فينبغي أن يؤدب في ذلك وأن يعود أخذ الطعام بيمينه والبدء باسم الله والأخذ بما يليه...وأن يقبح عنده كثرة الأكل بطريق غير مباشرة وذلك بذم الطفل الشره ومدح المتأدب القليل الأكل أمامه.
- تعويده اللباس المحتشم الوقور.
- الثواب والعقاب، والمدح أمام الناس، ولا يكون العقاب لكل أمر بل الأفضل التغافل والتغاضي عن بعض الأمور ولاسيما إذا خجل الطفل منها وتستر لإخفائها ولايكون العقاب علنا حتى لاتزيد جسارة الطفل وليكن العقاب قليلاً مجزياً لئلا يهون على الطفل وقع الملام وسماع التأنيب.
- منعه من النوم نهاراً. ومن كل مايفعله خفية فإنه لايخفى إلا ماهو قبيح.
- تعويده على الحركة والرياضة والاحتشام.
- منعه من الافتخار على أقرانه بما يملكه والده وتعويده التواضع وطيب الحديث.
- تعويده الإعطاء لا الأخذ ولو كان فقيراً.
- نهيه عن بعض الأعمال غير المستحسنة في المجالس كالبصاق والتثاؤب.
- منعه من القسم صادقاً أو كاذباً.
- تعويده الإقلال من الكلام إلا لحاجة أو ضرورة وبقدر مايتطلب قضاؤها.
- تعويده على الصبر.
- أن يأذن له باللعب بعد الدراسة حتى يستريح ويتجدد ذكاؤه ونشاطه وكيلا يستثقل العلم.
- وليخوف من السرقة وأكل الحرام وغير ذلك من الأخلاق المذمومة.
- وإذا بلغ سن التمييز فينبغي أن لايتساهل معه في كل مايحتاج إليه أمر الشرع.

وكما أن الغزالي يهتم كثيراً برياضة النفس على مايرغب المرء فيه من مكارم الأخلاق، ويرى أيضاً أن كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح، ويقول في ذلك: "كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لاتتحرك إلا على وفقها لامحالة. وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب. ويعرف ذلك بمثال: وهو أن من أراد أن يصير الحذق في الكتابة صفة نفسية له حتى يصير كاتباً بالطبع، فلا طريق له إلا أن

[34]- المصدر نفسه، ج3، ص70- 72.

يتعاطى بجارحة اليد مايتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة، يحاكي الخط الحسن، فيتشبه بالكاتب تكلفاً ثم لايزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً، كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً. فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً. ولكن الأول بتكلف، إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب. ثم انخفض من القلب إلى الجارحة، فصار يكتب الخط الحسن بالطبع. وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس، فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء، وهو التكرار للفقه. حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه، فيصير فقيه النفس"[35].

ويتضح مما سبق أن الغزالي يرى أن الكبيرة الواحدة لاتوجب الشقاء المؤبد، لأنها بدون التكرار لاتصبح صفة النفس، ولامعنى للشقاء المؤبد إلا أن تصير إحدى الرذائل صفة نفسية لأحد الناس.

غاية الأخلاق:

إن غاية الأخلاق عند الغزالي هي السعادة الأخروية ليصل في الآخرة إلى السعادة المنشودة متنعماً بالنظر إلى الله تعالى يقول الغزالي في ذلك: "إن السعادة الحقيقة هي الأخروية، وماعداها سميت سعادة، إما مجازاً وإما غلطاً، كالسعادة الدنيوية التي لاتعين على الآخرة. وإما صدقاً، ولكن الأسم على الأخروية أصدق، وذلك كل مايوصل إلى السعادة الأخروية ويعين عليها، فإن الموصل إلى الخير والسعادة، قد يسمى خيراً وسعادة"[36].

وهذا يدل على أن الغزالي لا يضع للأخلاق غاية نفعية ولا اجتماعية فعنده مثلاً: "الذي يسعف مريضاً، أو يغيث ملهوفاً، أو يسعف جريحاً، أو يواسي فقيراً، لا يهمه شفاء المريض، ولا إغاثة الملهوف، ولا إبراء الجريح، ولا سد حاجة الفقير، مادامت نيته قد خلصت في عمله، ووثق بجزاء لآخرة! وكل سعادة ينتجها العمل الطيب في هذه الدنيا إنما هي سعادة مجازية، وواجب المرء أن يفهمها كذلك. وله أن يعدها سعادة نسبية، على معنى أن مايوصل إلى السعادة الأخروية قد يسمى خيراً وسعادة"[37] ولذلك فأن "من يتجنب الفحشاء محافظة على كرامته لا يسمى عفيفاً، لأنه لم يقصد بعفته وجه الله، فكل عمله تجارة، وترك حظ لحظ يماثله"[38].

وعلى الرغم من تأكيد الغزالي على أن خير الآخرة وسعادتها هما غاية الأخلاق، ولكنهما الغاية القصوى لها، فإن للأخلاق _في نظره _ غاية دنيوية هي أيضاً الخير والسعادة في هذه الدنيا التي نعيشها، وهذا واضح في سابق كلامه، وليس هذا فحسب، بل لقد أفرد فصلاً خاصاً ليبين أيضاً أن خير الدنيا غاية أخلاقية، جاعلاً عنوان هذا الفصل: (**بيان البواعث على تحري الخيرات والصوارف عنها**) وفيه يقول: "أما الخيرات الدنيوية فالبواعث عليها ثلاثة أنواع: الترغيب والترهيب بما يجري ويخشى في الحال والمآل. والثاني رجاء المحمدة وخوف المذمة ممن يعتد بحمده وذمه، والثالث طلب الفضيلة وكمال النفس، لأنه كمال وفضيلة، لا لغاية أخرى وراءها" . [39] ومن ذلك نرى بأن الإمام الغزالي يعتبر خيري الدنيا والآخرة غاية للأخلاق، فخير الآخرة لأنه مطلق ما بعده خير، وخير الدنيا لما فيه من بواعث نفسية واجتماعية وعقلية. وهذا يعني تسلسل القيم صعداً من خير الدنيا إلى خير الآخرة.

وكذلك الأمر في السعادة، فسعادة الآخرة هي الغاية القصوى للفعل الأخلاقي، وسعادة الدنيا غاية أخلاقية أيضاً لأن ما يوصل إلى الخير والسعادة خير وسعادة، "ولأن سعادة الآخرة لا تنال إلا بأنواع السعادات الأخرى" وهذا ما كشف عنه عند حديثه عن أنواع السعادة قائلاً: "فجملتها منحصرة في خمسة أنواع: الأول السعادة الأخروية، التي هي بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لاجهل معه، وغنى لافقر معه يخالطه، ولن يتوصل إليه إلا بالله، ولا يكمل إلا بالنوع الثاني؛ وهو الفضائل النفسية وهي أربع:

العقل والعفة والشجاعة والعدالة وإنما تتكامل هذه الفضائل بالنوع الثالث، وهي الفضائل البدنية المنحصرة في أربع أمور: هي الصحة والقوة والجمال وطول العمر، ويتمّمها النوع الرابع، وهي الفضائل المطيفة بالإنسان، المنحصرة في أربعة

[35]- الغزالي، ميزان العمل، ص106.

[36]- المصدر نفسه، ص117.
[37]- سليمان دنيا، الأخلاق عند الغزالي، ص56.
[38]- الغزالي، ميزان العمل، ص136
[39]- الغزالي، ميزان العمل، ص136.

أمور. وهي المال والأهل والعز وكرم العشيرة، ولا يتم الانتفاع بشيء من ذلك إلا بالنوع الخامس، وهي الفضائل التوفيقية، وهي أربعة: هداية الله ورشده وتسديده وتأييده، فهذه السعادات بعد السعادة الأخروية"[40].

الفضائل:

لم يحاول الغزالي بحث الفضائل بشكلها المطلق ولاعني بها من حيث هي مبادئ وإنما مال إلى معالجتها بصفتها التطبيقية من جهة ارتباطها بالتعليم الديني، فالفضيلة عنده ممارسة تؤدي إلى تزكية النفس باعتياد الأفعال الصادرة من النفوس الزكية العاقلة حتى إذا صار ذلك مألوفاً بالتكرار وبزمن متقارب تشكلت منها ملكة راسخة في النفس، فهي اعتدال ووسط بين طرفين من رذلين ويؤكد ذلك قائلاً: "والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة والطرفان رذيلتان مذمومتان"[41].

كما أن الغزالي لايفرق بين كلمة فضيلة، وكلمة خلق، فهما عنده عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة، فالفضيلة حالة كمال للنفس تنالها إذا اعتدلت قواها فلم تجنح إلى الإفراط أو التفريط، وإذا كان للقوة العاقلة سياسة القوتين الأخريين. هذا الكمال إذا تم للنفس قربت من الله عزوجل بالمرتبة طبعاً لا بالمكان، وذلك السعادة[42].

والفضائل وإن كانت كثيرة، فيجمعها أربع، تشمل شعبها وأنواعها، وإذا كان من المعروف أن للنفس ثلاث قوى، كانت أمهات الفضائل أربعاً؛ تنشأ ثلاث منها من اعتدال كل قوة من هذه القوى، وتكون الرابعة بانسجام هذه القوى بعضها مع بعض حتى لاتبغى واحدة منها على الأخرى. وأصول هذه الفضائل، التي هي جماع كل خير، وهي: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدالة.

وقد نص على أنه يعني بالحكمة حال للنفس بها يدري الصواب من الخطأ في جميع الأحوال الاختيارية. ويعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة. ويعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها. ويعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

ولهذه الأصول فروع، كما يرى الغزالي، "فمن اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير، وجودة الذهن، وثقاب الرأي، وإصابة الظن، والتفطن لدقائق الأعمال، وخفايا أفات النفوس. وأما خلق الشجاعة فيصدر عنه: الكرم، والنجدة والشهامة، وكسر النفس، والاحتمال، والحلم، والثبات، وكظم الغيظ، والتودد. وأما خلق العفة فيصدر عنه: السخاء، والحياء، والصبر، والمسامحة، والقناعة، والورع، واللطافة، والمساعدة، والظرف، وقلة الطمع. والعدالة في أخلاق النفس وقواها يتبعها لامحالة العدل في المعاملة، وفي السياسة، وفي عامة الحالات"[43]. ويجب علينا هنا أن نشير إلى أن العدالة جماع كل فضيلة، كما أن الجور جماع كل رذيلة، وعلى هذا لاتكون العدالة واحدة من الفضائل الأربع بل تكون جملتها معاً[44].

درجات الأخلاق:

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل في مقدور المرء لدى الغزالي أن يصل إلى أعلى درجات الأخلاق؟

ويجيب الغزالي عن ذلك بقوله: "وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً يرجع الخلق كلهم إليه، ويقتدون به في جميع الأفعال. ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد"[45].

ويشير الغزالي إلى أن النبوة هي الدرجة العليا من درجات الأخلاق، والصوفية فيما يرى يقربون من هذه الدرجة، يقول عنهم في المنقذ من الضلال: "لو جمعوا عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء،

---

[40]- المصدر نفسه، ص136-137.
[41]- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، 31.
[42]- الغزالي، ميزان العمل، ص79.
[43]- نظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص39-40، الغزالي، ميزان العمل، ص64 وما بعدها.
[44]- انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص78. الغزالي، معارج القدس، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م، ص96.
[45]- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص54.

ليغيروا شيئاً من سيرتهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً: فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به"[46].

وبالتالي فقد امتازت نظرة الغزالي لمفهوم الخُلق وتحليله له بأنها نظرة منهجية جامعة لا تكتفي بالنظرة الجزئية المبتسرة، وإنـما تنظر إلى الفكرة نظرة شاملة مستوعبة، تحدث من خلالها عن عناصر الفعل الخلقي، كما اتخذه منطلقًا لحديثه عن قبول الخلق للتغيير.

كما أنه قدم مفهومه للخلق من خلال رؤية إسلامية أصيلة تؤكد أنه لا بد من أن يوزن الخلق بـميزان الشرع والعقل، وليس العقل فقط كما نراه عند غيره من الفلاسفة. وتتفق نظرة الغزالي هذه مع الموقف الفكري العام له، والذي يقوم على العلاقة الوثيقة بين العقل والشرع، فالعقل يهتدي بالشرع الذي يُعلِّمه ما لا يستطيع أن يصل بنفسه إلى علمه، والشرع يُفْهَم عن طريق العقل، فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولا يتمكن الإنسان من الرؤية إلا بـهما، فإذا اجتمعا معًا فهما نور على نور.

الخاتمة:

انتهى البحث إلى أن الغزالي قدم مفهومه للخلق من خلال رؤية إسلامية أصيلة تؤكد أنه لا بد من أن يوزن الخلق بـميزان الشرع والعقل. وتتفق نظرة الغزالي هذه مع الموقف الفكري العام له، الذي يقوم على العلاقة الوثيقة بين العقل والشرع، فالعقل يهتدي بالشرع الذي يُعلِّمه ما لا يستطيع أن يصل بنفسه إلى علمه، والشرع يُفْهَم عن طريق العقل، فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولا يتمكن الإنسان من الرؤية إلا بـهما، فإذا اجتمعا معاً فهما نور على نور.

امتازت نظرة الغزالي لمفهوم الخلق وتحليله له بأنها نظرة منهجية جامعة لا تكتفي بالنظرة الجزئية المبتسرة، وإنـما تنظر إلى الفكرة نظرة شاملة مستوعبة، تحدث من خلالها عن عناصر الفعل الخلقي، كما اتخذه منطلقًا لحديثه عن قبول الخلق للتغيير.

يدل بحث الغزالي في الأخلاق بصفة عامة وتعديل الأخلاق خاصة على خبرة قوية بالنفس الإنسانية، هذه الآراء التي تتفق وآراء التربية الحديثة.

[46]- الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق: سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون، الإسكندرية. ص39.

المصادر والمراجع:

الغزالي، (محمد بن محمد الغزالي أبوحامد): إحياء علوم الدين، تحقيق: بدوي طبانة، مكتبة ومطبعة كرياطة فوترا.

الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق: سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون، الإسكندرية.

الغزالي، معارج القدس، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م.

الغزالي، ميزان العمل، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى، 1964م.

الجرجاني (علي بن محمد بن على الجرجاني)، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1405.

إسلام (عزمي)، جون لوك، دار الثقافة، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1976م.

التوحيدي (أبوحيان)، الصداقة والصديق، بدون بيانات.

المغربي (علي عبدالفتاح)، دراسات عقلية وروحية في الفلسفة الإسلامية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1995م.

دنيا (سليمان)، الحقيقة في نظر الغزالي، دار المعارف، مصر، 1965م.

مبارك (زكي)، الأخلاق عند الغزالي، دار الجيل، بيروت،ط1، 1988م.

محمود حمدي زقزوق، مقدمة في علم الأخلاق، دار القلم، الكويت، ط3، 1983م.